



اسم المقال: اختراع المعاني عند النقاد العرب القدماء

اسم الكاتب: د. حسين علي الزعبي

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/2782>

تاريخ الاسترداد: 2026/04/12 20:14 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت. لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>



اختراع المعاني عند النقاد العرب القدماء

د. حسين علي الزعبي*

الملخص

يتناول هذا البحث فكرة اختراع المعاني، وهي فكرة أصيلة في تراث العرب النقدي، ويقصد بها تلك المعاني المخترعة والتشبيهات المبتكرة عند شعراء العرب، سواء أكانوا جاهليين أم إسلاميين أم محدثين. عالج البحث هذه الفكرة بتمهيد، ذكر فيه اهتمام النقاد العرب بنقد المعنى، ثم بالإشارة إلى أنواع المعاني، والفصل بين المعنى المخترع وغيره من المعاني المتداولة، ومن ثم بتعريف الاختراع، وتخصسه بالمعاني، ثم كان جوهر البحث إذ استجلى الأحكام النقدية التي خصت اختراع المعاني وابتكار التشبيهات خلال مسار تاريخي متسلسل من ابن سلام الجمحي (231هـ) إلى ضياء الدين ابن الأثير (637هـ)، وختم البحث بأهم الرؤى النقدية التي ذهب إليها النقاد في معالجة اختراع المعاني.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

Criteria of Praise Poetry among the Ancient Arab critics

Dr. Hussein Ali Al Zu'obi**

Abstract

This paper deals with the idea of inventing meaning which is an original idea in the critical heritage of the Arabs. What is meant by this idea is the invented meaning and created analogies used by Arab poets, whether they belonged to Aljahelia, Islam or Modernity.

The paper deals with this idea using a preface, in which the researcher mentions the interest of the Arab critics in criticizing meaning, in referring to the types of meanings, in the separation between the invented meaning and other meanings that are in circulation, and then in defining invention and its specialization in meanings.

The researcher moves then to the essence of the research which reveals the critical rules that govern the invention of meanings and the creation of analogies through a historical chronology beginning with Ibn Salam al-Jamaji (d. 231 Hijri) to Diaa Al-Din Ibn Al-Atheer (d. 637 Hijri). The research concludes with the most critical visions that critics addressed when they dealt with the invention of meanings.

** Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University.

حاز عنصر اللفظ والمعنى اهتمام النقاد العرب القدماء، إذ دار كثير من القضايا النقدية حول هذين العنصرين.

وقد وُلد الاهتمام بنقد المعنى في الموروث النقدي عند العرب، خلال مسيرة تطوره نشوء قضايا نقدية متعدّدة تخص المعاني، منها قضايا نقدية رئيسية، وأخرى فرعية، ومن القضايا الفرعية تفرعت فكرة قضية اختراع المعاني.

وللمعاني أنواع عديدة، مشتركة، ومتداولة، ومولّدة، ومخترة مبتكرة. فصل أبو هلال العسكري بين المعنى الإبداعي المخترع وغيره من المعاني وتجلّت نظريته إلى تلك المعاني المبتدعة المخترعة، أنها تأتي على غير مثال سابق، قال: "المعاني على ضربين: ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها. وهذا الضرب ربما يقع عند الخطوب الحادثة، ويتنبّه له عند الأمور النازلة الطارئة. والآخر ما يحتديه على مثال تقدّم ورسم فرط".¹ وعرف ابن رشيق الاختراع، قال: "المخترع من الشعر هو: ما لم يسبق إليه قائله، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه".²

ثم ميّز بين الاختراع والإبداع، فخصّ "المعنى" بالاختراع، واللفظ بالإبداع، قال: "والفرق بين الاختراع والإبداع - وإن كان معناه في العربية واحداً - أن الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع، وإن كثر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ".³

وقد تابع النقاد القدماء المعاني المخترعة منذ وقت مبكر، وأخذت قدرًا وإفياً من اهتمامهم. إذ قدّم ابن سلام الجمحي (231هـ) امرأ القيس على الشعراء جميعاً، "فقد سبق العرب إلى أشياء ابتدعتها، واستحسنتها العرب، وأتبعته فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والتكاء في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وشبه النساء بالطّباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد".⁴

¹ كتاب الصناعتين، العسكري: أبو هلال، تح: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1406هـ/1986م، ص: 69.

² العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده: الفيرواني، ابن رشيق، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل، بيروت، لبنان، 1972م، ط4، ج1، ص: 262.

³ المصدر نفسه: ج1، ص: 265.

⁴ طبقات فحول الشعراء: الجمحي، ابن سلام، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة، 1400هـ/1980م، ج1، ص: 55؛ وانظر: الشعر والشعراء، ج1، ص: 68.

وتميّز امرؤ القيس، إذ سبق الشعراء إلى أشياء عديدة؛ المعاني، والتشبيهات التي تمثل معنى المعنى، وبعض الخصائص الأسلوبية، فكانت السبب في تفضيله وتقديمه على الشعراء، حتى أصبح رأس طبقات فحول الشعراء.
وعدّ الجاحظ (255هـ) قول عنتره بن شداد في وصف الذباب معنى متفردًا مخترعًا لم يستطع أحد من الشعراء أن يأتي بمثله:

فترى الذّباب بها يغني وحده هزجًا كفعل الشارب المترّم
غردًا يحكُّ ذراعَهُ بذراعِهِ فعل المُكبِّ على الزّناد الأجم⁵

وقد كثرت إشارات ابن قتيبة (276هـ) إلى السبق في المعاني، إذ أصل لكثير من المعاني المخترعة، وفرّق بين المعاني المخترعة التي لم يستطع أحد أن ينازع فيها، وبين تلك المعاني التي استطاع الشعراء أن يأخذوها.

ومن المعاني التي سبق إليها الشاعر، ولم يُنازع فيها، قول زهير بن أبي سلمى:

فإنّ الحقّ مقطعه ثلاثٌ يمين أو نفار أو جلاء

يريد أن الحقوق إنما تصح بواحدةٍ من هذه الثلاث: يمين، أو محاكمة، أو حجة بيّنة واضحة.⁶

وقول النابغة:

فإنّك كالليل الذي هو مُدركي وإنّ خلّت أن المنتأى عنك واسع⁷

⁵ الحيوان: الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1388هـ/1969م، ج3، ص: 312/311؛ وانظر: البيان والتبيين: الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي . القاهرة، ط4، 1395هـ/1975م، ج3، ص: 326.

⁶ الشعر والشعراء: ابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت . لبنان، ج1، ص: 85/79.

⁷ المصدر نفسه: ج1، ص: 104.

وسبق أبو نواس إلى معان في الخمر لم يأت بها غيره، كقوله في وصفها:

وَحَدِيدٍ لَدَاتٍ مُعَلَّلٍ صَاحِبٍ يَقْتَاتُ مِنْهُ فَكَاهَةً وَمَزَاحًا
 قَالَ: ابغني المصباح، قلت له: اتَّند حسبي وحسبك ضَوْءُهَا مِصْبَاحًا
 فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرِبَةً كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحًا⁸

كما كَرَّرَ قول ابن سلام في سبق امرئ القيس إلى المعاني والتشبيهاً،⁹ وإلى وصف
 عنتره للذباب، وأنه لم يَنَازِعَ فيه.¹⁰

ومن المعاني التي سبق إليها الشعراء، وأخذت منهم، قول المسيب بن علس يذكر نَعَرَ المرأة:

كَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسَالَفَهُ الْخَمْرُ
 شَرَقًا بِمَاءِ الذُّوبِ أَسْلَمَهُ لِلْمَبْتَغِيهِ مَعَاقِلُ الدَّيْبَرِ
 أَخَذَهُ الْجَعْدِي، فَقَالَ:

وَكَأَنَّ فَاهَا بَاتٍ مُغْتَبِقًا بَعْدَ الْكُرَى مِنْ طَيِّبِ الْخَمْرِ
 شَرَقًا بِمَاءِ الذُّوبِ أَسْلَمَهُ بِالطُّودِ أَيْمَنُ مِنْ قَرَى النَّسْرِ¹¹

ومما سبق إليه الأخطل، فأخذ منه قوله:

قَوْمٌ تُعَلَّقُ أَشْنَاقُ الدِّيَاتِ بِهِ إِذَا المِئُونُ أَمَرَتْ فَوْقَهُ حَمَلًا
 أَخَذَهُ الكَمَيْتُ، فَقَالَ:

كَأَنَّ الدِّيَاتِ إِذَا عُلِّقَتْ مِئُوهَا بِهِ الشَّنَقُ الأَسْفَلُ

وأشناق الدِّيَاتِ: أصنافها من الحقائق والجذاع وأشباهاها.¹²

⁸ - المصدر نفسه: ج2، ص: 692.

⁹ - المصدر نفسه: ج1، ص: 54/53.

¹⁰ - المصدر نفسه: ج1، ص: 174.

¹¹ - الشعر والشعراء: ج1، ص: 108.

¹² - المصدر نفسه: ج1، ص: 397.

ومما سبق إليه أرطاة بن سُهَيْبَةَ، وأخذَ منه قوله يصف الفرس:

كأنَّ أعينها من طول ما جشمت سيرَ الهواجر زيتٌ في قوارير

قال غيره:

إذ الرِّكائبُ مخسوفٌ نواظرها كما تضمَّنتِ الدَّهنُ القوارير¹³

ومما سبق إليه بشَّار قوله:

كأنَّ مثار النَّقع فوق رؤوسهم وأسياقنا ليل تهاوى كواكبهم

أخذه العتابي، فقال:

تبني سناكبها من فوق رؤوسهم سقًا كواكبهم البيض المباتير¹⁴

وقد ذكر ابن قتيبة معاني كثيرة سبق إليها الشعراء، وأخذت منهم.¹⁵ وحرص ابن قتيبة أشدَّ الحرص على أهمية السبق في المعاني الشعرية، فأصل لها في خطابه النقدي، إذ إنَّها تمثل خصوصية الانتماء لجانب من جوانب الإبداع الشعري، وهي في الوقت نفسه تشير إلى مكانم الفرداء عند الشعراء، سواء أكانت المعاني مبتكرة لم يستطع أحد أن ينتزعها، فيقول مثلها، أم مبتكرة، وانتزعها بعض الشعراء؛ وتتوع زمن الشواهد إشارة إلى أنَّ ملكة إبداع المعاني تساوى بها الشعراء سواء أكانوا قدماء أم إسلاميين أو محدثين.

وكان لابن المعتز (296هـ) لمحات نقدية كثيرة حول المعاني، وذهب إلى إثارة المعاني المخترعة التي لم يسبق إليها، فأبو نواس كثير البدائع.¹⁶

¹³ - المصدر نفسه: ج1، ص: 428.

¹⁴ - المصدر نفسه، ج2، ص: 646/645.

¹⁵ - انظر: الشعر والشعراء: ج1، ص: 83/82، 121، 124، 140، 143، 156، 163، 169، 202، 203، 210، 233، 245، 263، 269، 271، 302، 309، 310، 312، 327، 328، 339، 354، 365، 403؛ ج2، ص: 476.

¹⁶ طبقات الشعراء: ابن المعتز، عبد الله، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، ط4، 1375هـ/1956م، ص: 204.

ومما يستحسن لمسلم بن الوليد - وشعره كله ديباج حسن لا يدفعه عن ذلك أحد - قوله:

فإني وإسماعيل يوم وداعه لكالغمد يوم الزرع زايله النَّصل
فإن أغش قومًا بعده أو أزرهم فكالوحش يُدنيها من الأئسِ المحل

وهذا معنى لا يتفق للشاعر مثله في ألف سنة.¹⁷

ومن بديع ما للعباس بن الأحنف وطريفه ما ليس لأحد في معناه شيء يدانيه قوله:

أحرَمَ منكم بما أقول وقد نال به العاشقون مَنْ عشقوا
صِرْتُ كأني ذبالة نُصِبت تضئ للناس وهي تحترق¹⁸

وهناك ثلاثة من الشعراء ذكروا الليل بمعان مختلفة لم يسبقوا إليها؛ النابغة حيث يقول:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
ويشار حيث يقول:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيفاً ألم
وخالد بن يزيد:

رَقِدْتَ ولم ترث للساھر وليلُ المـحـبِّ بلا آخر¹⁹

ولأخيطل برقوقاً بيت عجيب في تشبيه المصلوب ليس لأحد مثله في قوله:

كأنه عاشق قد مدَّ بسطته يوم الفراق إلى توديع مُرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصلٌ لتمطيّه من الكسل²⁰

17. المصدر نفسه: ص: 235.

18. طبقات الشعراء: ص: 255.

19. المصدر نفسه: ص: 405/404.

20. المصدر نفسه: ص: 412.

قدّم ابن المعتز شواهد، تخص خلق المعاني، ووصفها (بالبدائع) و (التفرد)، وتعني النادر والعجيب والمخترع المبتكر، وأكد تنوع المعنى الواحد في الإبداع، وسأوى في اختراع المعاني بين الشعراء القدماء والشعراء المحدثين؛ المشهورين وغير المشهورين، وهذا يتفق مع ميله إلى شعر الحداثة في العصر العباسي.

وعزا الصولي (355 أو 356هـ) اختراع المعاني إلى ما يراه الشاعر في بيئته، فمشاهد بيئة البداوة تختلف عن مشاهد البيئة المدنيّة، وما ولّدت من معانٍ جديدة، قال: "إن ألفاظ المحدثين مذ عهد بشار إلى وقتنا كالمنتقلة إلى معانٍ أبداع وألفاظ أقرب، وكلام أرق، وإن كان السبق للأوائل بحق الاختراع والابتداء، والطبع والاكتفاء؛ وأنه لم تر أعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عياناً، كما يرى المحدثون ما وصفوه هم مشاهدة وعانوه مدة دهرهم من ذكر الصحارى والبرّ والحش والإبل والأخبية. فهم في هذا أبداً دون القدماء كما أنّ القدماء فيما لم يروه أبداً دونهم".²¹ ثم يؤكد ذلك إذ قال: وقد وجدنا في شعر هؤلاء . يقصد الشعراء المحدثين . معاني لم يتكلم القدماء بها.²²

وقد أقام موازنة بين إبداع أبي تمام والشعراء الذين سبقوه، معتمداً على معيار الكثرة في تفضيل أبي تمام، قال: وكان الشعراء قبل أبي تمام يبدعون في البيت والبيتين من القصيدة، فيعتدّ بذلك من أجلّ الإحسان؛ وأبو تمام أخذ نفسه وسام طبعه أن يبدع في أكثر شعره²³. وهو يؤكد فكرته التي ذهب إليها في غير ما كان" وليس أحد من الشعراء يعمل المعاني ويخترعها ويتكئ على نفسه فيها أكثر من أبي تمام"²⁴.

وكان معيار المعاني المخترعة حاضرًا في مخيلة الأمدى النقديّة (371هـ)، ولا سيّما اختراعات المحدثين، ففي أثناء موازنته بين أبي تمام ومسلم بن الوليد في مذهب البديع قدّم مسلم بن الوليد على أبي تمام، ويعود السبب إلى "سلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه... وكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته"²⁵

²¹ - أخبار أبي تمام: الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، تح: خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ص: 16.

²² - المصدر نفسه: ص: 17.

²³ - المصدر نفسه: ص: 38 / 23.

²⁴ - المصدر نفسه: ص: 100 / 53.

²⁵ - الموازنة بين أبي تمام والبحتري: الأمدى، الحسن بن بشر، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، 1363هـ / 1944م، ص: 11.

وهو في الوقت نفسه لم ينف اختراعات أبي تمام، بل لم يقبل رأي مَنْ قَلَّ من كثرتها، قال: " وقد سمعت أبا علي محمد بن العلاء السجستاني يقول: إنه ليس له معنى انفرد به فاخترعه إلا ثلاثة معانٍ، وهي قوله:

تأبى على التصريد إلا نائلاً إلا يكن ماءً قَرَّاحًا يُمَذَّقِ
نزرًا كما استكرهت عائر نفحةٍ من فأرة المسك التي لم تُفتقِ

وقوله:

بني مالكٍ قد نبهت حامل الترى قبورٌ لكم مستشرقات المعالم
رواكذ قيس الكفِّ من متاولٍ وفيها عُلَى لا ترتقي بالسَّلام

وقوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُوِيَتْ أتاح لها لسان حَسود
لولا اشتعال النَّار فيما جاورت ما كان يُعرَف طيبٌ عَرَف العودِ

ولست أرى الأمر على ما ذكره أبو عليّ، بل أرى أنّ له - على كثرة ماخذه من أشعار الناس ومعانيهم - مخترعات كثيرة، وبدائع مشهورة، وأنا أذكرها عند ذكر محاسنه إن شاء الله تعالى".²⁶

وهو يؤكد ما وعد به في باب فضل أبي تمام، إذ " وجد أهل النّصفة من أصحاب البحري ومنّ يقدّم مطبوع الشعر دون متكلفه لا يدفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والإبداع والإغراب فيها، والاستتباط لها، ويقولون: إنه وإن اختلف في بعض ما يورده منها فإن الذي يوجد فيها من النادر المستحسن أكثر مما يوجد من السخيف المسترذل، وإنّ اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه، على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة".²⁷

²⁶ الموازنة: ص 123/124.

²⁷ المصدر نفسه: ص: 378.

أصدر الأمدى في النص السابق على لسان أنصار البحتري موقفاً نقدياً يشي باهتمام أبي تمام بمعانيه سواء أكانت مستتبطة مولدة أم مخترعة نادرة، وعدّ الإبداع والنادر سمة فنية من صفات شعره، وهي صفة تنسم بالإيجابية، لأنها ملكة من ملكات الإبداع عند أبي تمام. ويمضي الأمدى إلى الإشادة بإبداع أبي تمام، فيقول: "وهذا أعدل كلام سمعته فيه، وإذا كان هذا هكذا فقد سلّموا له الشيء الذي هو ضالة الشعراء، وطلبتهم، وهو لطيف المعاني، وبهذه الخلّة دون ما سواها فضّل امرؤ القيس؛ لأنّ الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق ما في أشعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام... ولولا لطيف المعاني واجتهاد امرئ القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه؛ إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ولا ألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا في تقديمه بأن قالوا: هو أول من شبه الخيل بالعصيّ، وذكر الوحش والطيور، وأول من "قيد الأوبد" وأول من قال كذا، وقال كذا، فهل هذا التقديم إلا لأجل معانيه؟"²⁸

استحوذ إبداع المعاني في هذا النص النقدي على تفكير الأمدى، إذ فضل جدة المعاني وأصالتها على الجزالة والفصاحة، واستدل على ذلك بتقديم امرئ القيس على غيره من الشعراء، وحدّد المعيار الذي بنى عليه حكمه، وهو اختراع المعاني. ورأى الأمدى أنّ هذا المعيار كثير في شعر أبي تمام، حتى غدت بدائعه مشهورة ومحاسنه متداولة.

وقدم مثالين صوّر فيهما إبداع أبي تمام، وهما قوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود

وقوله:

هي البدر يغنيها تودد وجهها
إلى كلّ من لاقت، وإن لم تودد²⁹

وهكذا نرى أنّ الأمدى منح المعاني المخترعة مزيةً خاصة، إذ تشكل آلية أساسية من آليات الإبداع، وبها يتفوق الشاعر المبدع على غيره من الشعراء.

²⁸ - الموازنة: ص: 378/379.

²⁹ - المصدر نفسه: ص: 379.

وفي أثناء المحاورات النقدية التي دارت بين المتنبّي والحاتمي (388هـ) تحدّث كلاهما عن اختراع المعاني، وقد ذكر المتنبّي بعض اختراعات امرئ القيس والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى والأعشى، ومما قاله في امرئ القيس: هو إمام الشعراء، والفاثق لهم أكمّام المعاني وربّ القصب والسبق إلى كل لفظ مهذب، ومعنى مخترع، وتشبيهه مبتكر.³⁰

وهو في الوقت نفسه ينفي اختراع المعاني عن كلّ من أبي تمام والبحترّي، إذ قال مخاطباً الحاتمي: فهل تجد لأبي تمامكم هذا أو بحترّيكم معنىً اخترعاه؟ فقال الحاتمي: وهل تستوفي اختراعاتهما مذاكرة، أو يأتي على جزء واحد منها البحث والمناقشة؟ فقال المتنبّي: هلّمّ معنىً واحداً ولك الخصل.³¹

فيجيبه الحاتمي قائلاً: من اختراعات أبي تمام التي وقع إجماع الرواة عليها قوله:

تأبى على التصريد إلا نائلاً إلا يكن محضاً قرأحاً يمدّق
عمداً كما استكرهت عائر نفة من فارة المسك التي لم تفتق³²

ويروي الحاتمي معاني عديدة، اخترعها أبو تمام، تدور في فلك الحكمة، والمديح، ووصف الرماح والسيوف، والشيب، وصفات الإبل.³³ كما روى الحاتمي اختراعات البحترّي، ومنها قوله:

ولمّا التقينا والنقا موعداً لنا تعجّب رأيي الدرّ حسناً ولاقطه
فمن لؤلؤ تديبه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث شاقطه³⁴

إنّ هذه المحاورّة النقدية تدلّ دلالة واضحة على أهمية اختراع المعاني عند كلّ من المبدع الشاعر والناقد.

³⁰ - الرسالة الموضحة: الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن، تح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 1385هـ/1965م، ص: 78، 79، 80، 81، 82، 83، 84.

³¹ . المصدر نفسه: ص: 186.

³² . المصدر نفسه: ص: 187.

³³ . المصدر نفسه: ص: 187/188/189/190/191.

³⁴ - الرسالة الموضحة: ص: 193. وانظر: فيما رواه الحاتمي من اختراعات البحترّي، ص: 192/194.

فالمتنبي وإن رفض اختراعات أبي تمام والبحتري لأسباب تتعلق بهذه المحاورة، إذ اتهمه الحاتمي بالسرقة من هذين الشاعرين. فهو يعترف باختراعات رؤوس فحول الشعراء، فامرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى هم شعراء مخترعون على الرغم من إشارته إلى التفاوت الشعري في أشعارهم.

واتكأ الحاتمي على إجماع الرواة في أحكامه، إذ أكد من خلالها اختراع المعاني عند كل من أبي تمام والبحتري، والذي يلفت الانتباه كثرة الشواهد التي ذكرها، مما يدل على أهمية هذا المقياس في مخيلته النقدية.

وأشار **علي بن عبد العزيز الجرجاني (392هـ)** إلى الاختراع والابتكار، وذلك في أثناء مناقشته المعاني المتداولة، قال: ثم اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع، فوجدت منه مستقيضاً متداولاً متاقلاً... وإن كان الأصل فيه لمن انفرد له، وأوله للذي سبق إليه.³⁵

وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصناعة الشعر، فتشترك الجماعة في الشيء المتداول، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب، أو ترتيب يستحسن، أو تأكيد يوضع موضعه، أو زيادة اهتدى لها دون غيرها؛ فإيرك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع، كما قال لبيد:

وجلا السُّيولُ عن الطُّلولِ كأنَّها زبرٌ تُجدُّ متونها أقلامها

فأدى إليك المعنى الذي تداولته الشعراء، قال امرؤ القيس:

لمن طللٌ أبصرته فشجاني كخط زبورٍ في عسيبٍ يمانِي

وقال حاتم:

أتعرف أطلالاً ونوياً مهذَّما كخطك في رقِّ كتابٍ منمنما

وقال الهذلي:

عرفت الديار كرسَمِ الكِتابِ بَ يزيره الكاتبُ الحميري

وأمثال ذلك مما لا يحصى كثرة، ولا يخفى شهرة، وبين بيت لبيد وبينهما ما تراه من الفضل.³⁶

³⁵ - الوساطة بين المتنبي وخصومه: الجرجاني، علي بن عبد العزيز، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1386هـ/1966م، ص: 184.

³⁶ - الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 187/186.

وأحسب أن الجرجاني قد خلط بين المعاني المبتكرة والمؤدّة، فقول لبيد من المعاني المؤدّة، كما أعتقد أنّ الجرجاني ينكر الاختراع: إذ قال: "ومتى أجهد أحدنا نفسه، وأعمل فكره، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنّه مبتدعاً، ونظّم بيت يحسبه فرداً مخترعاً، ثم تصفّح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه، أو يجد له مثلاً يغضُّ من حسنه".³⁷

وكان ابن رشيقي القيرواني (456هـ) من أكثر النقاد اهتماماً بمصطلح الاختراع، إذ عرفه، قال: المخترع من الشعر هو: ما لم يسبق إليه قائله، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه.³⁸

وميّز بين الاختراع والابتداع، فالاختراع يخص المعنى، والابتداع يخص اللفظ، فإذا كان الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها، فإنّ الإبداع يأتي في تكرار وإعادة هذا المعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله، فصار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ.³⁹

ودلّل على المعاني المخترعة بأمثلة متعددة، منها قول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سموّ حباب الماء حالاً على حال

فإنّه أول من طرق هذا المعنى وابتكره، وسلم الشعراء إليه، فلم ينازعه أحد إياه، وقوله:

كأنّ قلوب الطّير رطباً ويابساً لدى وكُرِّها العنّابُ والحشف البالي

وله اختراعات كثيرة يضيق عنها الموضع، وهو أول الناس اختراعاً في الشعر.⁴⁰

ومن الاختراع قول طرفة:

ولولا ثلاث هُنَّ من لذة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عؤدي⁴¹

فمنهنّ سبق العاذلات بِشَرَبَةٍ كُميت متى ما تعلّ بالماءِ تُزِيدُ⁴²

وكَرِّي إذا نادى المضاف محنّباً كسيد الغضا ذِي الطيخة المتورد⁴³

وتقصير يوم الدّجن والدّجن معجبٌ بيهكنة تحت الطّراف المعمد

³⁷ المصدر نفسه: ص: 315.

³⁸ العمدة: ج1، ص: 262.

³⁹ العمدة: ج1، ص: 265؛ وانظر: اختراعات امرئ القيس، قرصنة الذهب، القيرواني، ابن رشيقي، نح: الشاذلي بو يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، 1972م، ص: 21.

⁴⁰ المصدر نفسه: ج1، ص: 262.

⁴¹ يروى: هُنَّ من (عيشة) الفتى؛ انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني، دار الجبل، بيروت، لبنان، ص: 82.

⁴² يروى: فمنهنّ (سبقي) العاذلات؛ انظر: المصدر نفسه، ص: 83.

⁴³ يروى: كسيد الغضا (نَبَهَةٌ) انظر: المصدر نفسه، ص: 83.

وقوله يصف السفينة في جريها:

يشقُّ حباب الماء حيزومها بها كما قَسَمَ التُّرْبَ المفائل باليدِ

وله أيضاً اختراعات أكثرها من هذه القصيدة.⁴⁴
وقال نابغة بني ذبيان:

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليدِ
وقوله أيضاً من الاختراعات:

لو أنها عرضت لأشمط راهبٍ عَبدَ الإله صَرورةً مُنَعَبِدِ
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشداً وإن لم يرشُدِ

وما زالت الشعراء تخرع إلى عصرنا الحاضر.⁴⁵

ولم يكتف ابن رشيق بهذه الشواهد، كما صرح من قبل، وإنما ذكر كثيراً من التشبيهات العقم التي لم يسبق أصحابها إليها، ومن ذلك قول عنترة يصف ذباب الروض،⁴⁶ وقول الحطيئة: "يصف لغام ناقته:

ترى بين لحيها إذا ما ترعّمت لغاماً كبيت العنكبوت الممددِ
وعدي بن الرقاع يصف قرن ظبي:

ترجي أغنّ كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مذادها"⁴⁷

ومن هذه التشبيهات العقم؛ (قول الراعي يصف جعد الرأس، وقول بشر بن أبي خازم يصف عروق الأرتى وقد كشفها ثور، وقول الطرّ ماح في صفة الظليم، وقول ذي الرّمة في صفة الليل، وقول مضرّس بن ربيعي في صفة رأس الحمامة).⁴⁸

⁴⁴ العمدة، ج1، ص: 263.

⁴⁵ المصدر نفسه: ج1، ص: 263.

⁴⁶ المصدر نفسه: ج1، ص: 297/296.

⁴⁷ المصدر نفسه: ج1، ص: 297.

⁴⁸ العمدة: ج1، ص: 298/297.

وهو لم يسلم بما ذهب إليه بعض النقاد في إطلاق صفة العقم على بعض التشبيهات، ومن ذلك قول النابغة في صفة النسر:

تراهنّ خلف القوم خزرًا عيونها جلوسَ الشيخ في ثياب المرانب

وهذا التشبيه عندهم عقيم، إلا أني أقول: إنه من قول طرفة يصف عقابًا:

وعجزاء دفت بالجناح كأنها مع الصبح شيخ في بجادٍ مقنع⁴⁹

وكذلك كانت اختراعات المحدثين حاضرة في ذاكرة ابن رشيقي، فعقد بابًا لما جاء من المعاني المحدثّة، ذكر فيه ما انفرد به المحدثون من معانٍ مخترعة، وخصّ بشار بن برد وأبا نواس وابن الرومي بهذه الاختراعات. ومن الاختراعات قول بشار بن برد:

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانًا

قالوا: بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم الأذن كالعين تُوفي القلب ما كانا

ويرى أنّ اختراعاته كثيرة، واشتهاره بذلك يغني عن الإتشاد له.⁵⁰ ومنها قول أبي نواس، وقد ذكر المبرد أنه لم يسبق إليه، وهو:

أيها الرائحان باللوم لوما لا أدوق المنام إلا شمميما

نالني بالمام فيها إمام لا أرى لي خلفه مستقيما

الأبيات⁵¹

وأشار إلى أنّ معاني أبي نواس واختراعاته كثيرة.⁵²

ويرى ابن رشيقي أنّ أكثر الشعراء اختراعًا ابن الرومي، ويذكر عدة شواهد؛ منها:

عيني لعينك حين تنظر مقتلٌ لكن لحظك سهم حتف مرسل

ومن العجائب أن معنى واحدًا هو منك سهمٌ وهو مني مقتل⁵³

⁴⁹ المصدر نفسه: ج1، ص: 298.

⁵⁰ المصدر نفسه: ج2، ص: 242.

⁵¹ العدة: ج2، ص: 243/242؛ وانظر الصفحة نفسها، هناك شواهد أخرى.

⁵² المصدر نفسه: ج2، ص: 244.

⁵³ المصدر نفسه: ج2، ص: 244.

وأشار ابن شرف القيرواني (460هـ) إلى ما ذهب إليه ابن رشيق في اختراعات ابن الرومي، إذ عدّه شجرة الاختراع وثمره الإبداع.⁵⁴ إنّ ما ذكره ابن رشيق يوحى بأفكار نقدية عديدة؛ تأصيل مصطلح اختراع المعاني، فهو معنى مبتكر غير مسبوق، وكذلك غير مقلّد، اختيار مجموعة من النماذج لم تحوّل إلى معنى آخر، ديمومة اختراع المعاني وعدم توقفها عند أيّ لحظة تاريخية محددة، وإنما هي مستمرة باستمرار الزمن، وأظهر ما غير ذلك تخصيص باب لمعاني المحدثين المخترعة، وقوله: إن أكثر الشعراء اختراعاً ابن الرومي. ومما أشار إليه الكندي (613هـ) في أثناء شرحه شعر المتنبي بعض المعاني التي سبق إليها، ومنها قوله:

فإن تقق الأنام وأنت منهم فإنّ المسك بعض دم الغزال⁵⁵

وكذلك قوله:

وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تقرّ من البنان⁵⁶

وعدّ المعنيين من المعاني التي لم يسبق أحد من الشعراء المتنبي إليهما البتة. وأما ضياء الدين بن الأثير (637هـ) فقد خص أبا تمام والمتنبي بالابتكار والإبداع، قال: "أما أبو تمام فإنّه ربّ المعاني وصيقل ألباب وأذهان شهد له بكل معنى مبتكر، لم يمش فيه على أثر، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب، الذي برز فيه على الأضراب، وقد مارست من الشعر كل أول وأخير، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقيح".⁵⁷ وأشار إلى تفرد أبي الطيب المتنبي بالإبداع في وصف المعارك، قال: "واختص بالإبداع في وصف المعارك... ولا شك أنّه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن

⁵⁴ رسائل الانتقاد: القيرواني، ابن شرف، تح: حسني حسن عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1404هـ/1983م، ص: 33.

⁵⁵ الصفوة في معاني شعر المتنبي وشرحه: أبي اليمن تاج الدين زيد بن الحسن الكندي، دراسة وتحقيق: د. عبدالله بن صالح الفلاح، النادي الأدبي، الرياض، 2009م، ج1، ص: 528/114.

⁵⁶ المصدر نفسه: 115، ج2، ص: 498.

⁵⁷ المثل السائر: في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ضياء الدين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر، 1358هـ/1939م، ص: 369.

حمدان فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه... ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى، وجدته أقساماً خمسة: خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيرها⁵⁸. وهو يقصد بهذا الخمس وصفه للمعاريك. الجديد في نقد ابن الأثير أنه تجاوز الحكم على المعنى المخترع أو التشبيه المستطرف الجديد في البيت المفرد، وإنما ذهب إلى الحكم الكلي على شعر أبي تمام، إذ رآه مبتكراً في شعره كلّ، كما ذهب إلى وصف خمس شعر المتنبي بالنفرد والابتكار، وصرح أنّ هذه الحكمين صدرتا عن تجربة في قراءة شعر الشعراء.

نتائج البحث:

- رصد النقاد القدماء حركة اختراع المعاني عند الشعراء الجاهليين والإسلاميين والمحدثين العباسيين، ولم يقصروا هذه الميزة على الشعراء المشهورين، بل ذكر بعضهم المغمورين كالأخيطل.

- فصل النقاد بين المعاني المتداولة والمعاني المخترعة، وقصدوا بالمخترعة تلك المعاني المخترعة والتشبيهات المبتكرة التي لم يسبق إليها الشعراء، ولم تأت على مثال سابق.

- ربط بعض النقاد بين المعاني المخترعة والبيئة المرئية، وما تولده من صور، وهذا ما أشار إليه الصولي في حكمه على بعض شعر أبي تمام، وابن الأثير في حكمه على بعض شعر المتنبي.

- أصل ابن رشيق مصطلح (الاختراع)، إذ عرفه، وميّز بينه وبين الإبداع.

- تراوحت الأحكام النقدية بين الحكم على المعنى المخترع في البيت المفرد إلى الحكم الكلي على شعر شاعر، أو على غرض من أغراضه، وهذا ما بدا عند كلّ من الصولي في حكمه على شعر أبي تمام وابن الأثير في حكمه على شعر أبي تمام وشعر المتنبي، وسبقهم ابن سلام فيما رواه عن الذين قدّموا امرأ القيس. وأعتقد أن الأحكام الكلية التي أطلقها الصولي وابن الأثير يعوزها الدقة، وفيهما مبالغة لأنّ الذي عرف عن أبي تمام عند أكثر النقاد أنّه شاعر مولّد، وهنالك فرق بين الاختراع والتوليد.

- لم يبرز النقاد خصوصية تلك المعاني المخترعة والتشبيهات المبتكرة، وإنما استشهدوا بها لسبقها وفرادتها، إذ شكلت في أذهانهم آلية من آليات الإبداع، ومعيّاراً نقدياً حكموا من خلاله على استحسان شعر الشاعر وتفضيله.

المصادر والمراجع:

⁵⁸ المصدر نفسه: ج2، ص: 370/369.

1. أخبار أبي تمام: الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، تح: خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.
2. البيان والتبيين: الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1395هـ/1975م.
3. الحيوان: الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، ط3، دار إحياء التراث، بيروت، 1388هـ/1969م.
4. الرسالة الموضحة: الحاتمي أبو علي محمد بن الحسن، تح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 1385هـ/1965م.
5. رسائل الانتقاد: القيرواني، ابن شرف، تح: حسني حسن عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1404هـ/1983م.
6. شرح المعلقات السبع: الزوزني، دار الجيل، بيروت، لبنان.
7. الشعر والشعراء: ابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
8. الصفة في معاني شعر المتنبي وشرحه: أبي اليمن تاج الدين زيد بن الحسن الكندي، دراسة وتحقيق: د. عبدالله بن صالح الفلاح، النادي الأدبي، الرياض، 2009م.
9. طبقات الشعراء: ابن المعتز، عبد الله، تح: عبد الستار أحمد فراج، ط4، دار المعارف، مصر، 1375هـ/1956م.
10. طبقات فحول الشعراء: الجمحي، ابن سلام، تح: أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1400هـ/1980م.
11. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: القيرواني، ابن رشيق، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1972م.
12. قراضة الذهب: القيرواني، ابن رشيق، تح: الشاذلي بو يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، 1972م.
13. كتاب الصناعتين العسكري: أبو هلال، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1406هـ/1986م.
14. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، ضياء الدين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1358هـ/1939م.

15. الموازنة بين أبي تمام والبحتري: الأمدى، الحسن بن بشر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، 1363هـ/1944م.
16. الوساطة بين المتنبي وخصومه: الجرجاني، علي بن عبد العزيز، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1386هـ/1966م.